

## علم المارتيرولوجي Martyrology :

للاستشهاد في المسيحية فلسفة روحية عميقة ، تستند إلى حياة روحية إنجيلية ، وقد عالج آباء الكنيسة تلك الفلسفة التي تعلق بها المسيحيون من جميع الطبقات والثقافات والأجناس والأعمار ..

ويضم علم المارتيرولوجي دوافع الاستشهاد وفلسفته الروحية العميقة ، لا كفكرة طارئة ساذجة اعتنقها بسطاء المسيحيين ، لكن كقصة الكرازة بالمسيحية ..

إنه العلم الذي يفوح منه رائحة مسك هؤلاء الشهداء وعطر الآمهم ، فيتناول سير الشهداء وأعمال شهادتهم وأقوالهم وأدعيتهم وعذاباتهم وفئاتهم ، وموقف الكنيسة من الاضطهاد ، وسلوك المسيحيين في الكنيسة الأولى ..

كما يتناول هذا العلم الأبائي تطور مفهوم الشهادة ، وموقف المسيحيين وسط العالم في حُبة الاضطهاد ، وكيف أعدت الكنيسة أولادها للاستشهاد ، .. وبالجملة كل ما يخص الأدب الاستشهادي ..

لقد كان الاستشهاد شرارة مُنيرة ، أُلقيت في أعماق نفوس الآباء الداخلية ، فاشتعل الحب فيهم ، وصار العشق الإلهي لهيباً ، يجذبهم إلى جماله غير المنطوق به ، ليجعلهم شهوداً وشهداء ، فحملت كنيستنا أمام العالم سمة التعدد والتنوع ، ووقفت أمام العالم كابنة الملك المُتَحفة بثياب مزرکشة ، تُقدّم شهادة الدم التي كتب عنها آباء الكنيسة ومعلميها ، لتلمس أوتار كثيرة لقلوب الكثيرين ، بعد أن جاءت أعمال الشهداء أمثلة حية في الدفاع عن الإيمان المسيحي بكل مجاهرة ، وكتب لنا عنها معلمو البيعة المقدسة ...

فكما تقدّم كثير من المسيحيين من كل الفئات والأعمار والثقافات للاستشهاد بفرح ، كذلك انبرى آباء الكنيسة في الدفاع عن الإيمان ، هؤلاء الآباء دُعوا بالمُدافعين The Apologists ، ليردوا على الإتهامات ويكشفوا ضلال الوثنية وجمال روحانية المسيحية ...

ويعتبر القديس كوادراتس Quadratus أقدم المدافعين المسيحيين ، الذي قدّم دفاعه للإمبراطور هادريان ، وأرستيدس Aristides من رجال القرن الثاني ، وأرسطون Ariston الذي دافع عن المسيحية ضد اليهود ، والشهيد يوستين Justin الذي كتب دفاعين وحوار مع اليهودي تريفو Tryho وغيرهم من المدافعين ..

كتب الفيلسوف يوستين عن تأثره العميق الذي انطبع في نفسه من رؤية الشهداء المسيحيين فقال : " في الوقت الذي كنت أستمع فيه بمبادئ أفلاطون ، وفي الوقت الذي كنت أستمع فيه إلى المتاعب التي يتكدها المسيحيون ، قلت لنفسي : حيث أُنِي رأيتهم لا يرهبون الموت حتى وسط الأخطار التي يعتبرها العالم مُرعبة ، فمن المُستحيل أن يكونوا أناساً يعيشون في الشهوة والجرائم " .

وقال عن نفسه : " لقد طرحت جانباً كل الرغبات البشرية الباطلة ومجدي الآن في أن أكون مسيحياً ، ولا شئ أشتيه أكثر من أن أواجه العالم كمسيحي " .

لقد فنّد يوستينوس كل ادعاءات اليهود وافتراءاتهم ، وبيّن أنّ اليهودية لم تكن سوى مُقدمة للمسيحية ، وأنّ اليهود وفقاً للعهد القديم عليهم أن يؤمنوا بالمسيح .

ويقول يوسابيوس القيصري عن استشهاد يوستين في مدة حكم أوريليوس سنة 161 – سنة 169م أنّ في ذلك اليوم كان معه ستة آخرون ، ولما اقتيدوا للوالي الروماني روستيكوس Rusticus :

قال يوستين : " نحن لا يمكن أن نلام أو نُدان لطاعتنا وصايا مُخلصنا يسوع المسيح ... لقد جاهدت أن أحيط بكل العقائد ، ولكنني أمنت بالعقيدة الحقيقية ، أي تلك التي للمسيحيين ، حتى لو كان يرفضها الذين لديهم اعتقادات باطلة ... نعم أنا مسيحي وأرجو أن أنال هبات الله إذا تحمّلت هذه الآلام ، إني مُتيقن من هذا

... لقد صلينا أن نتألم من أجل ربنا يسوع المسيح ، لكي بهذا نخلص ، إنَّ هذا سيمنحنا ثقة وتأكيد لخلصنا ، عندما نقف أمام منبر ربنا ومخلصنا ” ... عندئذٍ ذهب الشُّهداء القديسون إلى المكان المُعد لهم وهم يُمجدون الله ، حيث قُطعت رؤوسهم .

وفي سنة 211م ، كتب القديس أكليمنضس الأسكندري نصاً لليونانيين **Protrepticus** ليوضح لهم خِسة الوثنية فيقبلوا الإيمان المسيحي والإستتارة الروحية الفعالة ... ولقب القديس أكليمنضس الإنسان الحقيقي الذي له شركة اتحاد مع الله “ شهيداً ” ، لأنَّ الاستشهاد في نظره ليس من بطولة الشهيد بل في الشهادة للحق المسيحي ، الذي يجعل الشهيد يحتل بشجاعة الأمام تفوق ما تحتمله الطبيعة البشرية ..

واعتبر القديس أكليمنضس الأسكندري أنَّ المسيحي الحقيقي لا يضطرب من شيء ما .. لا يخشى الموت ولا يخافه ، لأنَّ له الضمير الصالح الذي يهيئه لمُعينة القوات السمائية .

وركز القديس على أنَّ الاستشهاد أمر أساسي في حياة كل مؤمن ، لأنَّ الاستشهاد ليس مجرد سفك دم ، ولا مجرد اعتراف شفوي بالمسيح لكنه ممارسة كمال العشق الإلهي ..

واعتبر القديس أنَّ الجميع مدعوون للاستشهاد ولنوال الإكليل ، نساء ورجالاً عبيداً وأحراراً .

وقبَّ القديس أكليمنضس الشهادة رافضاً التقمُّ لها باندفاع وتهور ، واعتبر أنَّ الاستشهاد كأس نشربه من أجل الكنيسة ، لا بد أن تُطبعه بسهولة ، بعد أن نتحرر من الآلام مقدماً ، ونروض المضطهد ونُقعه بحب بلا مقاومة ..

تحدَّث القديس من واقع خبرته الخاصة التي عاشها في عصر الاستشهاد ولمس ثمرته الحيَّة في حياة الكنيسة ، فأكد على حتمية الاستشهاد واعتباره كمال المحبة وقانونية الشهادة العملية ، مُعتبراً أنَّ الاستشهاد كمال **teleiotes** لأنَّ فيه يظهر كمال عمل المحبة، وأنَّ كل نفس تعيش في معرفة الله ومخافته تشهد بحياتها كما بالكلام ..

والاستشهاد عند القديس أكليمنضس خيرة حياة يومية تُعاش وتُختبر حتى تبلغ قمة العمل ( عند الدم ) ، مُعتبراً أنَّ الاستشهاد تنفيذ لوصايا الرب من خلال الحب ، في كل عمل يُمارس طاعة لإرادة المُخلص .. وبالجملة نجد أنه رأى في الاستشهاد إعلان لعمل التوبة اليومية ، مؤكداً على الحُب نحو الله في حياة وعمل الشهيد ، مُعتبراً أنَّ من يقوم بإثارة المضطهدين يُحسب مُجرماً لأنه يُثير وحوش كاسرة .

ثم جاء العلامة أوريغانوس ، الذي عاش في بيت له نفسية الاستشهاد ، فقد ألقى القبض على ليونيدس أبيه ووُضع في السجن ، أمَّا ابنه أوريغانوس فكان يتوق أن ينال إكليل الاستشهاد مع والده ، فمنعته أمُّه من تحقيق رغبته بإخفاء ملبسه .. فأرسل إلى أبيه يحثه على الاستشهاد قائلاً له :

“ إحذر أن تغيّر قلبك بسببنا ”

قبض على أوريغانوس سنة 250م في زمان الاضطهاد الذي أثاره ديسيوس ، وألقى في السجن ونالته عذابات شديدة ، لكنه لم يستشهد بل أفرج عنه ، بعد أن وُضع في طوق حديدي ثقيل وربط بمقطرة أياماً كثيرة .

كتب العلامة أوريغانوس سنة 235م كتابه “ الحث على الاستشهاد ” ، وقد أفرغ فيه خلاصة اشتياقاته وخبراته ، وأرسله إلى صديقيه الحميمين أمبروسيوس وبروتوكيتس كاهن قيصرية ، اللذين قبض عليهما ، وطرحا في السجن ، فوجَّه لهم مقاله **Exhortatio Martyrium** حث فيه على الاستشهاد وحدَّر من عبادة الأوثان وقدم أمثلة للاستشهاد وتحدَّث عن وجوب الاستشهاد وأنواعه ..

تكلم العلامة أوريغانوس عن المُجازاة والجمالة المُعدَّة في السماء للمضطهدين لأجل البر ، وأشرك

الطبيعة في فرجة الشهادة لاسم الله ، فوصف ابتهاج الملائكة وتصفيق الأنهار بالأأيادي وترثم الجبال وتصفيق شجر الحقل بالأغصان من أجل الدفاع عن المسيحية ...

اعتبر العلامة أوريجانوس أن الاستشهاد الكامل ليس فقط علانية بل في الخفاء أيضاً كشهادة ضمير وإماتة من أجل الله ..

دخل العلامة أوريجانوس إلى مشاركة الشهداء أتعابهم ، وتلمذ كثيرين فصاروا شهداء ، إذ يقول : وُجِدَ وقت كان فيه الناس مؤمنين بحق ، حيث كان الاستشهاد هو عقوبة حتى لمن يدخل الكنيسة .. ووقفت الكنيسة كلها دون أن تنزعزع ، وكان الموعوظون ينلقون التعليم الإيماني وسط الاستشهاد ، ونظر العلامة أوريجانوس للاستشهاد على أنه أحد البراهين على صحة الحق المسيحي واستمرار لعمل الخلاص ...

رأى العلامة أوريجانوس أن عُقران الخطايا يستحيل بدون العماد ، لكنه أعطى للمعمدين معمودية الدم . وكتب عن الأمجاد التي كُلت الكنيسة وسط الضيق ، واصفاً غلبة الشهداء للعذابات واعترافهم بغير خوف بالله الحي ، والأعمال البطولية العجيبة التي كانت للمؤمنين القليلي العدد ، لأنهم بحق مؤمنين يتقدمون في الطريق المؤدي للحياة ، موضحاً أنه لا بد أن يكون استشهادهم بحسب مشيئة الله ويتبصر وصحو ورزانة ، فالرب يُعلمنا أنه ليس بعدم بصيرة يذهب أحد إلى ساحة الاستشهاد ...

تطلع إلى الاستشهاد كواجب كل مسيحي يرغب في الاتحاد بالله ، ويشتاق للساعة ، حتى أنه قال في محاورته مع هيراقليدس : “ أحضروا الوحوش ، أحضروا صُلباناً ، أحضروا ناراً ، أحضروا عذابات ، لنستريح مع المسيح ” ، ورأى العلامة أوريجانوس أن الاستشهاد مؤسس على النموذج الأمثل للحياة كما حددها الإنجيل .

ربط العلامة أوريجانوس بين الاستشهاد وذبحة الصليب ، على اعتبار أن ذبيحة الحمل لها انعكاسها في بذل دم الشهداء الذين يبذلون دماءهم واعترافهم وغيرتهم على الصَّلاح ، فالموت يُصبح ثميناً ، ليس الموت العقيم غير المُثمر في السماوات ، بل ذلك الموت المُقدس من أجل الإيمان المسيحي .

رأى العلامة أوريجانوس ارتباط الشهداء بالمسيح نفسه ، وفي استشهادهم ضرورة للخلاص ، وأن كل من يبغى الخلاص ليسترد روحه أفضل ، يُقدم للموت ، فكل من يحمل شهادة يرتبط مع من يشهد له ويصير واحداً معه كالعريس والعروس ، فالاستشهاد ذبيحة حُب مرتبطة بذبحة الصليب ، لأنها ذبيحة غير مُنفصلة عن ذبيحة المسيح نفسه ..

وعن بركات الاستشهاد والاشتياق له يقول :

“ من أجل المكافأة أتمنة – لو كنت شهيداً – أن أترك ورائي أطفالاً وحقولاً وبيوتاً حتى يُمكنني أن أكون أباً لأضعاف مُضاعفة من الأطفال القديسين ، وأتمتع بهذه الأبوة في حضرة الله الأب ” .

ويصف العلامة أوريجانوس نفوس الذين ماتوا على الإيمان بالمسيح ، وهي في انطلاقها ، كيف تسحق قوى الشياطين وتُحبط كل مكائدهم ضد الناس ، ويُؤكد قائلاً : أن قوى الشر تُعاني الإنكسار بموت الشهداء القديسين وكأنما صبرهم وحسن اعترافهم حتى الموت وغيرتهم على التقوى قد غلبت نضال قوى الشر المتآمرة على الشهيد ، وأنهت قوتهم وأضاعتهما ، وكثيرون ممن أسقطوهم وألقوهم أرضاً كانوا يرفعون هاماتهم حرة مُتحررة من وطأة قوى الشر التي جثمت على صدورهم وأذانهم ... طالما انتفع الكثيرون من موت الشهداء بقوة لا يمكن التعبير عنها .

وفي عام 250م بدأ الاضطهاد في حبرية البابا ديونيسيوس بابا الأسكندرية الذي قدّم لمسات سريعة لشهداء الأسكندرية في ذلك الوقت وكتب رسالته إلى دومنيوس وديديموس ، ورسالته إلى فابيوس أسقف أنطاكية .

استبقاه الله لِيُشَدِّدَ الشعب أثناء الاضطهاد وفي المجاعات والأوبئة ، وبالرغم من القبض عليه ، إلا أن شعبه حمله من يديه ورجله ودفعوه دفعاً داخل البطريركية .

وفي نهاية كل اضطهاد كان يضمُّ المرتدين ، بعد أن كتب دفاعات ورسائل كثيرة ، وهو الذي رأى أن الاستشهاد في الدفاع عن وحدة الكنيسة لأفضل من الاستشهاد لأجل الإمتناع عن عبادة الأوثان ، ففي هذا محافظة على خلاص نفس واحدة وفي تلك محافظة على خلاص الكنيسة كلها ..

واعتبر البابا ديونيسيوس الكبير الاستشهاد سر كَنَسِي لذلك قال : “ الشهداء القديسون الذين هم الآن جُلساء المسيح وشركاء ملكوته ومُشتركون معه في الدينونة والقضاء هم وحدهم الذين خلصوا بدون معمودية ” .

وعندما انتشر الطاعون في الأسكندرية ، خرج المسيحيون من المخابئ ومن السرايب ، وهبوا عائدين إلى المدينة غير هيايين اضطهاد داكبوس وغالوس وقاليريان ، ليقوموا بالعناية بالمرضى من الوثنيين ، يواسون العائلات ، ويُشَدِّدون الذين على شفا الموت ويُغمضون عيون الأموات ويحملونهم على سواعدهم ليدفنوهم ، وهم يعلمون أنهم بسبب العدوى سيلاقون نفس المصير .. لذلك قال البابا ديونيسيوس الكبير : “ وكثيرون من الذين طبَّبوا المرضى سقطوا صرعى بنفس المرض ، أنَّ المسيحيين كانوا أول من رقد بسبب شهامة الحُب غير الهَيَّاب للموت ، وكان منهم قسوس وشمامسة .. فهذا الموت مع الإيمان الذي صاحبه لن يكون أقل مجداً من الاستشهاد ” .

ونأتي بعد ذلك إلى عام 302م ، حيث البابا بطرس الأول الذي خدم وسط عواصف الاضطهاد ومذابح الاستشهاد العنيفة ، فقد حُلَّت الضيقات في الكنيسة ، واستشهد فيها كثيرون وهرب البعض إلى الصحاري وسُجن كثير من الأساقفة ، وتهدمت الكنائس .. حتى انتهت حياة البابا بطرس شهيداً وخاتماً للشهداء ..

وضع الطوباوي بطرس خاتم الشهداء ، بعض القوانين الخاصة بالذين جحدوا الإيمان ، وقد جاءت هذه القوانين ضمن رسالة فصحية ( Canonical Epistle ) ، وقد جاءت قوانينه الفصحية الخاصة بالجادين للإيمان الراجعين بالتوبة تحمل مفاهيم الكنيسة عن الاستشهاد ، نذكر منها أنَّ الاستشهاد لا يُغتصب بالإثارة ، فالمسيحي الذي يُشعل نار الاضطهاد بإثارته للمُقاومين إنما يدخل بإرادته في التجارب ..

كان القديس بطرس مُحباً للاستشهاد ، لكنه صلَّى ليتوقف الاضطهاد لئلا يخور الضعفاء .. وحسب البابا بطرس نفسه غير مُستحق أن يكون شهيداً للرب ، ولا أساقفته مُستحقين لهذه النعمة .

ولعلَّ أروع معنى للاستشهاد قد سجَّله في شهادته عندما انسكب على الأرض فرحاً يشكر ويُسبِّح الله من أجل نعمة الاستشهاد التي أنعم بها الرب على الأساقفة .

لقد صلَّى من أجل المُعترفين إذ خشى أن يضعف أحدهم فيعثر المؤمنين ... صلَّى حتى تسنِّدهم نعمة الله ليصيروا شُهود حق للإيمان بالمسيح ...

كتب كثيراً عن العذابات والقبض والسجون والضربات غير المُحتملة والأوجاع المرعبة واعتبرها علامات يسوع في أجسادنا ، وحذَّر الذين حرموا أنفسهم من أن يتألّموا على اسم المسيح ...

ومن الفكر السكندري المستيكي ننتقل إلى العلامة الأفريقي ترتليان ( من القرن الثاني المسيحي ) ، الذي كتب كتابات دفاعية كثيرة ، وكتب أيضاً في الحث على الاستشهاد ، ورسالة دعاها ترياق العقرب Scorpiace وحض على الاستشهاد في الرسالة التي دعاها Ad Martyras ، وكتب أيضاً رسالته في الإكليل De Corona وتفرَّع عن رسالة الإكليل رسالة أخرى في الفرار من الاضطهاد De Fuje in Persecutione أجاب ترتليانوس فيها عن السؤال : أيجوز للمسيحي أن يفر ويختبئ في أثناء الاضطهاد ؟

وكذلك كتب ترتليان ضد اليهود Adversus Judaeos والالتهامات التي وُجّهت للمسيحيين .  
وفي رسالة للمُدافع ترتليان ، كان قد وجّهها للمسجونين لأجل الإيمان يقول :

“ لا تجعلوا انفصالكم عن العالم في السجن يربكم ، لأنّ العالم هو السجن الحقيقي ، فأنتم لم تدخلوا  
سجناً بل عُنقتم من السجن الحقيقي ، وإن كان السجن مُفعماً بالظلام ، لكنكم أنتم أنفسكم نور ، في السجن  
قيود لكن الله قد حرّركم ، فيه رائحة كريهة ، لكن أنتم أنفسكم رائحة زكية ، تنتظرون المُحاكمة لا على فم  
قاضي بل على فم الله ، لأنكم ستدينون الفُضاة أنفسهم ” .

واستطرد العلامة ترتليان في مقاله ليصِف السجن بالبرية للنبي واعتبره مكاناً للخوة ، فيه الجسم  
محبوس لكن الروح طليق ..

أفاض العلامة في الكلام عن بركات الاستشهاد وكيف أنه معركة شرف ، فيها الله رقيب ، والروح  
القدس مدرب والجزاء إكليل أبدي وحق المواطنة السماوية ..

ندد ترتليان بالوثنيين في دِفاعه عن المسيحية ، لاعتبار اضطهاد المسيحيين فقط معركة اسم ، ولأنّ  
المسيحيين وحدهم هم المحظور عليهم أن يتكلموا لتبرئة ذواتهم ، دِفاعاً عن الحق ..

وعن التعذيب يقول “ في حالة المُتهمين الآخرين الذين يُنكرون ، تلجأون إلى التعذيب حتى ما يعترفوا ،  
أمّا المسيحيون فهم وحدهم الذين يُعذبون حتى ما يُنكروا ... ” .

ووصف العلامة ترتليان السجن بأنه مسكن إبليس وجنوده ، لكن عندما يدخل فيه المُعترفون يطرحوا  
الشر تحت أقدامهم .

لقد حث العلامة ترتليان على الاستشهاد وكتب مقالاته ليهديها إلى الموعوظين الذين في طريقهم إليه ،  
وحتى الغنوسيين الذين استهانوا بالاستشهاد وفضلوا الهرب منه كتب لهم ترياق العقرب ، ليوضح لهم أنّ  
الاستشهاد ميلاد جديد تريح فيه النَّفس حياتها الأبدية .

اعتبر العلامة ترتليان أنّ دِماء الشُّهداء بذار الإيمان ، ووجّه كلامه إلى الحُكام الوثنيين قائلاً : استمروا  
في تعذيبنا ، اطحنونا إلى مسحوق ، فإنّ أعدادنا تزيد بقدر ما تحصدوننا ! إنّ دِماء المسيحيين لهي بذار  
محصولهم ، إنّ عِنادكم هو في حد ذاته مُعلّم لأنه من ذا الذي لا يتحرك بالتأمّل فيما تعملونه ليستعلم عن  
حقيقة الأمور ، ومن ذا الذي بعد انضمامه إلينا لا يشفق إلى التأمّل ..

كتب العلامة الأفريقي دِفاعاً مطوّلاً عن المسيحية ، مُوجّهاً إلى الوثنيين قائلاً : “ إنّنا جسم واحد مُتماسك  
بمقتضى سلوكنا التقوي المُشترك ورجائنا المُشترك ... إنّنا نُصلي من أجل الأباطرة ومن أجل وزرائهم ،  
ولأجل كل الذين في منصب ، وصندوق الخزانة تُجمع فيه التبرعات ، التي يضعها كل واحد بسرور .. هذه  
العطايا مُخصصة لأعمال الرحمة ، لا تُصرف على الولائم والحانات ، بل لمعونة الفقراء ودفنهم ولسد  
أعواز المُعدمين ... وبالإجمال كل الذين يُعانون من انكسار سفينة حياتهم ، أو المُضطهدون لا لشيء إلاّ لأجل  
إخلاصهم لكنيسة الله ، فنعتني بهم كعناية الأم برضيعها لأجل مُجاهرتهم بالإيمان ” .

وعندما تقترب من فكر القديس يوحنا ذهبي الفم بطيريك القسطنطينية عن الاستشهاد نجده يعتبر أنّ  
الاستعداد القلبي للاستشهاد يُحسب شهادة ..

أكد القديس فم الذهب على الإنتفاع من سير الشُّهداء بقوله “ إنّ شهادة الشُّهداء وسيرتهم أماننا هي في حد  
ذاتها عِظة للإنسان ، وعون للكنيسة كلها ، وتثبيت للإيمان المسيحي وغلبة لأوهام الموت ، وعينة للقيامة ،  
وتوبيخ للشيطان ، وتعليم للفلسفة الحقيقية ، واحتقار لأباطيل الدنيا ، والدليل الأكيد للسمو بمطالب النَّفس ،  
وراحة وعزاء للنَّفس الحزينة ، ومُحرك للصلوات ، ودخول في مجال الفُوة ، وباختصار أنّ سيرة الشُّهداء  
هي مُلهمة لكل الأمور الصالحة ” .

تطلّع القديس إلى الشهداء كقدوة ومثال لنا فيقول : “ عندما تتصور كيف احتقر الشهداء الموت ، مهما كنت جباناً أو كسلاناً ، فلا بد أن تُسلّتهم أفكاراً عالية ومجيدة ، وتحتقر كل التوافه ومسرات الأرض ، وتشتاق أن يكون لك سيرة سماوية ، ومهما كانت أوجاعك التي تحسها في جسدك إلا أن تصوّر الآلام الشهداء سيدخل فيك إحساس قوي بالصبر والرضا ، ومهما كان إحساسك بالفقر والعوز والضيقة ، فبمجرد أن تتأمل في عذابات الشهداء التي احتملوها ، ستشعر بالعزاء والإكتفاء ، وتكون لك الآمهم بمثابة الدواء الشافي ، من أجل ذلك فإني أشجع دائماً إقامة تذكارات الشهداء ، وقد أحببتهم جميعاً وكأني أحتضنهم في صدري ” .

وعن دالة الشهداء يقول “ لنترجى الشهداء ونتوسل إليهم أن يشفّعوا فينا إذ أن لهم دالة كبيرة للشفاعة فينا ، بل وقد صارت دالتهم بعد الموت أعظم بكثير مما كانت من قبل ” .

ربط القديس فم الذهب بين المحبة والاستشهاد ، ففي مديح لشهداء رومية يقول : “ ليست المحبة أقل قدراً من الاستشهاد في شئ ، فالمحبة هي رأس كل الصالحات ، لأن المحبة بدون الاستشهاد تصنع تلاميذ للمسيح ، لكن الاستشهاد خلواً من المحبة ما يقوى على صنع تلاميذ ” .. ومن أقواله المأثورة “ أن الذي لا يُحب أخاه ، حتى ولو نال الاستشهاد فما ينتفع كثيراً ” .

وعن غلبة الشهيد وقوة الشهادة يقول “ صفان من المحاربين ، صف الشهداء وصف الطغاة ، وبينما الطغاة يمتشقون السلاح ، يتجرد منه الشهداء ، والانتصار معقود للمتجردين وليس للمتشفقين ” .

وننتقل لشمال أفريقيا ، إلى قرطاجنة حيث تطور علم المارتيرولوجي ، على يد القديس كيريانوس الأسقف والشهيد الذي كتب مقالة معنونة “ الحث على الاستشهاد ” موجهة إلى فورتوناتوس Fortunatus ، يقول فيها “ نحن الذين – بسطان من الرب – منحنا المؤمنين العماد الأول ، علينا أن نُعد كل منهم للعماد الثاني بحثهم وتعليمهم أن هذا العماد أعظم في النعمة ، وأسمى في القوة وأرفع في الشرف .. بمعمودية الماء ننال عُفران الخطايا ، وبمعمودية الدم نظفر بإكليل الفضائل ، إننا على أبواب حرب قاسية وشديدة ، وعلى جنود المسيح أن يُعدّوا ذواتهم لها بإيمان حي وشجاعة قوية ، واضعين في اعتبارهم أن يشربوا يوماً كأس دم المسيح حتى يُمكنهم بذلك أن يسفكوا دماهم لأجله ” .

ويستطرد الشهيد كيريانوس فيقول “ أن العذابات في أزمنة ضد المسيح ، تستلزم أن تُعد لها قلوبنا ونُشجع نفوس الأخوة لكي نكون جميعاً مُستعدين للنضال السماوي الروحاني ، فليثبت إيماننا ولنتسلح بكلمة الله ، ومن واجبي أن أعدد شعب الله الذي أتمنني عليه ليكون كجيش في المعسكر السماوي ليواجهوا سهام وأسلحة إبليس ، ولا يمكن لمن لم يتمرن على القتال أن يكون جندياً صالحاً للرب أو أن يفوز بإكليل الجهاد ، ها أنا أرسل لكم ثوب الأرجوان الذي للحمل الحقيقي الذي فدانا وأحيانا ، لكي تفصلوه لأنفسكم فيصير ثوباً خاصاً بكم ، حتى يتغطى عُرينا القديم بثياب المسيح : ثيلب تقديس النعمة السماوية ” .

استجيبوا لبوق الحرب ، لقد أخذنا بتدبير الرب المعمودية الأولى ، وليكن كل واحد منا مُستعد للمعمودية الثانية أيضاً ، معمودية الدم ، أن نعيمها أعظم وقوتها أعظم وكرامتها أثنى ، التي يتمجد بها الله والمسيح ، التي ننال بها إكليل كل الفضائل ، وقد صار المسيح رب المجد مثال لنا في احتمال الآلام حتى الموت !! فلا يوجد عُذر لإنسان يرفض التألم لأجله ، وإن كان هو قد احتمل كل ذلك بسبب خطايانا فكم أحرى بنا جداً أن نحتمل بسبب خطايانا !!

الروح القدس يُعلمنا أنه لا ينبغي أن نخاف من جيش الشيطان ، وأن رجاءنا هو في إعلاننا الحرب ضده ، لأننا بذلك ننال السكنى الإلهية والخلاص الأبدي ، ولا يوجد أعظم من وعد الرب لنا بالأمان والحماية ، فإن كنا نحيا بقلوب مكرسة حقاً لله ، فلنقبل أن ندخل نفس امتحانات الآلام الشهداء ، وجزاؤنا يفوق بلا قياس الأمان إذا قهرنا الشيطان ورجعنا إلى فردوسنا مُنتصرين ... نُقدّم لله إيماننا ، إيمان غير فاسد غير مُترعزع وفضيلة واسعة راسخة ، وقلباً مقدساً ، فنجلِس ونصير شركاء ميراث المسيح ونفرح بامتلاكنا للملكوت

السماوي .. فالاضطهاد يُغلق أماننا الأرض ويفتح أماننا السماء ، ضد المسيح يُهدد ولكن المسيح يضم ويحمل ويسند .

كتب القديس تحية للشهداء يقول فيها " أيها البواسل المغبوطون .. إن الكنيسة أمكم فخورة بكم .. أيها المُتسرِّلون بالبأس ، عظيمة هي فؤة عزيمتكم وثبات أمانتكم حتى نهاية المجد ، لم تخضعوا للعذابات بل العذابات هي التي خضعت لكم واستعجلتكم لنيل الأكاليل .. إن المُتفرجين بإعجاب على تلك المعركة الروحية التي كانت بمثابة سياق نحو المسيح كانوا يرون خُدَّامه يُصارعون دون أن يُغلبوا أبداً ، مُعترفين بإيمانهم بصوت عالٍ !! مُمتلئين بحيوية وشجاعة تفوق فُدرة البشر ، بلا سلاح من هذا الدهر ، إنما مُتوشحون بأسلحة الإيمان ، والمُحتملون العذابات كانوا يرون قيامة أكثر فؤة من الذين يُعذبونهم ، الأمشاط الحديدية انتهت من الضرب والتمزيق ، إلا أن الأعضاء المضروبة والممزقة انتصرت عليها ..

عزيز هو الموت الذي يشتري الأبدية مُقابل الدم ، كم كان المسيح فَرِحاً وكم كان يسرُّه أن يُحارب ويغلب في شخص خُدَّامه المُخلصين ويُعطِيهم ما يشتهون أن ينالوه !! لقد كان حاضراً في تلك المُسابقة التي أثرت لأجل اسمه ، وأعان وسند وقوى وبعث الحيوية ، والذي غلب مرة الموت لأجلنا ما برح ينتصر فينا .

كشف لنا القديس كبريانوس عن مفهوم الألم والاستشهاد في ضوء الحياة الأبدية والتعلق بالسماء حيث مجد إلها وحيث لا تقف أمامه خايقة صامتة ، فكتب مقالة عن الموت ( الموت Mortality ) عندما اجتاح البلاد وباء الطاعون ، وهو الذي أدركته الضيقات وعاصر الاستشهاد حتى قبل الموت بقلب راض واثق ، وأحنى رأسه للسياف وهو يشكر الله ، فارتجف السياف من شدة إيمانه ..

ويرى الشهيد كبريانوس : " إننا وُضِعنا في معسكر قاس ، على رجاء نوال المجد السماوي ، وعلينا أن لا نرتعب من عواصف العالم ، ولا نهتز منها ، لأنَّ الرب سبق وكلمنا عن كل ما سيحدث لنا ، وأوصى كنيسته وهيئها وشددها لتحتمل كل ما سيأتي ... هوذا السماويات تحتل مكان الأرضيات ، والأمور العظيمة بدلاً من التفاهات ، والأبديات عوض الفانيات ، فما الداعي إذاً للقلق والجزع؟! " .

من يرى هذا ويرتعب في حزن إي الذي بلا رجاء ولا إيمان؟! فلا يرهب الموت إلا ذلك الذي لا يريد الذهاب مع المسيح .

إننا بالموت نبُغ وطننا السماوي ، الراحة الأبدية .. هذا هو سلامنا وراحتنا الأبدية ، ومن ممناً لا يتوق بالإسراع لنوال الفرح الأبدي لنذهب إلى دعوة المسيح لنا مُتهللين بالخلاص الإلهي .

وينتقل الشهيد ليُحدِّثنا عن الاشتياق للاستشهاد فيقول " عبيد الله يشاقون للاستشهاد ، يُدرِّبون الفكر على أمجاد الثبات بالتأمل فيه للاستعداد للإكليل " .

ويتكلم القديس على الاستشهاد كهبة إلهية " الاستشهاد ليس من سلطانك ، بل هو عطية من الله ، فليس لك أن تعترض إن فقدت نالست مُستحقاً له ... فالله الدَّيان يُتوج خُدَّامه الذين تهيأت أفكارهم " حياتهم " للاعتراف والاستشهاد " ولو لم يستشهدوا " لأنه لا يطلب دمنا بل إيماننا " .

ويذكر القديس أيضاً كيف يكون تكريم الشهداء وقيمة الشهادة العملية للإيمان ... فيقول " ينبغي أن نحمل الشهادة باجتهد ، كما حملها الذين تحرروا من هذا العالم بُناءً على دعوة من الرب ، لأنهم سبقونا كمُسافرين ، وكبحارة اعتادوا على الإبحار ، فنشتاق إليهم بعد أن أخذوا معهم إلى هناك الثوب الأبيض ... ليتنا نستعد لقبول إرادة الله الكاملة بعقل رزين وإيمان ثابت وفضيلة نشطة .. ولا نُقاوم الرب بل نأتي إليه متى دعانا بنفسه ...

لنتحرر من فخاخ العالم ، ونعود إلى الفردوس والملكوت .. إننا نتطَّع إلى الفردوس كبلدنا والآباء )  
البطاركة ( كآباء لنا ، فلماذا لا نُسرع بل ونجري ، لكي ننظر مدينتنا ونُحيي آباءنا ، فإن لنا أحياء كثيرين

ينتظروننا ، فأبي سعادة تغمُرنا وإياهم عندما نجتمع سوياً !!

هناك الشَّرْكة المجيدة مع الرُّسُل ، هناك خورس الأنبياء المُتَهَلِّين ، هناك جموع الشُّهداء غير المحصين ، هناك جموع البتوليين الفائزين ، هناك الرُّحماء مُكَلِّين .. هذا هو شوقنا العظيم ، وهدف ذهابنا وإيماننا !!

وفي رسالة القديس ( أل 76 ) التي يُحْيِي فيها الشُّهداء الذين فازوا بأكاليلهم ، ويشجع الذين مازالوا في السُّجون أو تحت التعذيب ، وحُكِّم عليهم بالعمل الشاق في المناجم ... كتب يقول :

“ ها أنتم قد احتملتم بصبر ضرب العصي ، مُتَهَيِّئين بهذا التنكيل القاسي للاعتراف العلني بإيمانكم ، صبراً ! فالعصاة الخشبية الصغيرة لن تُؤثر بشئ على الجسد المسيحي ، الذي وضع كل رجائه في الخشبة الكُبرى ..

من سيندهش أن يراكم ، يا أنية الذهب والفضة ، في المنجم ، الذي هو مصدر الذهب والفضة ؟ إلا أنَّ الوضع هنا قد انقلب فبدل أن يُعطي المنجم الذهب والفضة نراه هنا قد تقبَّلها .

أقدامكم قد تقيدت بالأغلال ، وأعضاؤكم المُباركة – يا هياكل الله – تكبلت بالقيود ، كما لو كان بتضييق الخناق على الجسد يُمكنهم أن يُقَيِّدوا الروح ! أو كما لو أنَّ ذهبكم يمكن أن يعتريه الصدأ بلامسة حديد السلاسل !!

إنها أغلال مُباركة لن يُفكها حدَّاد بل الرب يسوع نفسه ! إنها لقيود مُباركة فعلاً ، تلك التي تجعلكم تسيرون قدماً في الطريق المُستقيم المُؤدي إلى الفردوس ! مرحباً بك أيتها الأغلال العزيزة التي تُقيد لحظة في هذا العالم تُحرِّر إلى الأبد في العالم الأبدى هناك عند الله ، في المناجم لا نجد الفرَّاش الذي ننعم فيه بقسط من الراحة ، ويتعرَّض تنعمنا وراحتنا للُعري والبرد ، لكن من قد لبس المسيح فقد تنعم بالكساء الكامل والوقاية الحصينة .. يا له من مجد وبهاء سيؤول ” .

وأكد القديس كبريانوس في رسالته الشهيرة في وحدة الكنيسة ( De Ecclesiae Unitate ) على أنَّ الشقاق والهرطقة من عمل الشيطان ، وإنهما أشدَّ خطراً على وحدة المؤمنين من الاضطهاد ..

وبعد أن كتب رسائل كثيرة عن الاستشهاد ، ذهب إلى ساحة الاستشهاد وخلع ثياب الحبرية وأعطاها للشمامسة وجثا على رُكبتيه مُصلياً ، ثم طلب من أولاده إعطاء الجلاد 25 قطعة ذهبية ... ووضع المؤمنون لفائف ومناديل تحته ليتلقوا دمه الطاهر بركة لهم ، ثم عصب عينيه بيديه وحاول أن يتعجَّل المُتباطئ في تنفيذ الحكم ، وانطلقت روحه إلى مسيحتها لترث نصيبها المُعد لها مع الشُّهداء ..

وعن عظم الاستشهاد وكيف كان عبر اماتات الصليب ، ويُعلِّمنا القديس أمبروسيو أسقف ميلان ( 333 – 397م ) أنه :

“ بموت الشُّهداء تدعمت العقيدة وازداد الإيمان وتقوت الكنيسة ، لقد انتصر الذين ماتوا أمَّا المُضطهدون فقد غلبوا على أمرهم وهكذا فنحن نحتفل بموت أولئك الذين حياتهم غير معروفة لنا ، وداود أيضاً فرح حينما تنبأ بانطلاق نفسه بقوله “ كريم أمام الرب موت قديسيه ” ( مز 116 : 15 ) ، لقد حسب الموت أفضل من الحياة ، وموت الشُّهداء نفسه هو مُكافأة حياتهم ، وبموتهم أيضاً ، على اختلاف صُوره ، كفت الكراهية عن أن توجد بعد .. ” .

أكد القديس أمبروسيو الميلاني على المعنى الواسع للاستشهاد فيقول : “ هناك حروب أخرى أيضاً من الحروب التي على المسيحي أن يخوضها كل يوم ، ونعني بها القتال ضد الشهوات والصراع ضد الرغبات ، فأحياناً الشهوة تُثر الأوجاع والخوف يُرعب والغضب يُهيج والطموح يتحرك والشر يزيد ، هذه القتالات تُؤذي وتهز كالزلازل النفوس غير الثابتة ، ولكن الإنسان الشجاع يقول “ إن يُحاربني جيش فلن يخاف قلبي

وإن قام عليّ قتال ففي هذا أنا مُطمئن ” ( مز 26 : 3 ) ، فالملوك يموتون والشهداء يرثون إلى الأبد كرامات ملكوت النعمة السماوية .

لقد صمّم القديس أمبروسيو أن يكتب وصيته بدفن جسده بجوار الشهيد بروتاسيوس وجيرفاسيوس دليل على مدى ارتباط إيمان أمبروسيو بقيمة الشهداء وشفاعتهم ..

ثم نأتي إلى القديس أغسطينوس أسقف هيبو وشفيع التائبين ابن الدموع ( 430م ) ، الذي كتب عن الاستشهاد وعن المسيح الناطق في الشهداء قائلاً :

“ من هم الشهداء ؟ أليسوا شهود المسيح ، الذين يحملون الشهادة للحق ؟ فحينما ينطق هؤلاء الشهداء بالشهادة ، يكون المسيح هو الذي يشهد لنفسه فيهم ، إنه يحل في الشهداء ليجعلهم قادرين على حمل الشهادة للحق . إنه برهان المسيح المتكلم في الشهداء ( 2كو 13 : 3 ) ، فعندما يشهد يوحنا المعمدان ، يكون المسيح الحال فيه هو الذي يشهد لنفسه وإذا شهد بطرس أو بولس أو أي شهيد أو أي رسول أو إستفانوس فإنما المسيح فيهم جميعاً يشهد لنفسه ، فهو بدونهم إله ، أمّا هم بدونه لا شيء ” .  
وأفاض القديس أغسطينوس في التعليم عن فؤة الشهادة للمسيح ، فقال :

“ محبة الله التي تنسكب في قلوبكم بالروح القدس الذي سيُعطي لكم ( رو 5 : 5 ) سوف تمنحك الجراءة الكافية لمثل هذه الشهادة ، تلك المحبة التي كانت تعوز بطرس عندما ارتعب أمام سؤال جارية ، فقبل آلام الرب كُشف عن خوف العبودية الذي كان عند بطرس بواسطة عبدة جارية ، وبعد قيامة الرب استُعلنت محبته الحرة بواسطة رب الحرية نفسه ( يو 1 : 15 ) . ”

ففي مناسبة ملاءة الرعب وفي أخرى شمله السلام ، هناك أنكر الواحد الذي أحبّه ، وهنا أحب الواحد الذي أنكره ، وهكذا إذ شمله الروح القدس بملء النعمة ألهب قلبه الذي كان قبلاً بارداً خائفاً محصوراً ، حتى حمل تلك الشهادة للمسيح ( أع 2 : 5 ) ، بعد أن تحوّل من التهيّب إلى الجراءة والقوّة ، من الخوف إلى شجاعة الأحرار ، كل ذلك بعمل الروح القدس وتلك مواهبه الخاصة العظيمة والعجيبة .. إنها شهادة الروح القدس نفسه مؤازراً هذه الشهادة بشجاعة لا تُقهر فجرّد أحياء المسيح من خوفهم وحوّل بُغضة أعدائهم إلى محبة وقبول .

وضّح القديس أغسطينوس كيف يُحارب عنا الله ، فقال :

“ لن نصنع بأساً بالسيف إذ هو ليس بأساً خارجياً ، بل هو فؤة داخلية ، بالله نصنع بأساً .. لقد سُحقّ الشهداء في آلام وصعوبات حتى النهاية ، ولكن بالله صنعوا بأساً ، وهكذا داس الله أعداءهم ” .

كشف القديس عن أعماق روحية مذهلة في الشهداء ، فاعتبر المسيح قائد الشهداء وهم جنوده الذين يقتفون آثاره ، واعتبر أنّ كلمة “ نشهد ” معناها أننا نصير شهداء نحتمل العذابات بسبب شهادتنا .. وأشار إلى ديمومة الاستشهاد لكنيسة كل العصور ، وإلى أنّ الشهداء في شركة مع القديسين ، وقد أقر ذلك مسبقاً بقوله :

“ كل الأرض قد احمرت من دماء الشهداء ، والسماء قد أزهرت من أكاليهم ، والكنايس قد تزيّنت برفاتهم ، والفصول قد تميّزت بأعيادهم ، وصحة النّفس والجسد قد تشدّدت بقرّوتهم ” .

<http://www.ixoyc.net>  
[frathanasius.george@ixoyc.net](mailto:frathanasius.george@ixoyc.net)